التجـديـد اللـغـوي

.الدكتور أحمد مطلوب

رئيس المجمع العلمي – بغداد

يبحث مجمع اللغة العربية في مؤتمره السابع هذا (التجديد اللغوي) كما بحث في مؤتمراته السابقة كثيرا من قضايا اللغة العربية التي تهم واقعها في العصر الحاضر الذي استجد فيه كثير من الامور التي تتطلب لغة تستوعب الحضارة الحديثة والآداب والعلوم والفنون ، وتكون فاعلة في التعامل والإدارة والتدريس ووسائل الاعلام .

والتجديد سنة الحياة ، ولولاه لتوقفت مسيرة البشرية ، ولم تصل إلى ماوصلت إليه اليوم من ازدهار ، ونشوء مجتمعات عرفت معنى الحياة .

واللغة كائن حي ، ولابد من أن تواكب الانسان لتعبر عن حاجاته ، وتستوعب الجديد ، لكي لا يلجأ إلى اللغات الأجنبية ليعبر بها عما يريد ، وليكون فاعلا في هذا العصر الذي بلغ من التقدم مالم تبلغه القرون الأولى .

واللغة العربية من اللغات القديمة ، وقد نمت خلال تأريخها الطويل ، حتى إذا ما نزل القرآن الكريم على النبي العربي الأمين ــ عليه أفضل الصلاة والسلام ــ كانت قد وصلت إلى مرحلة عظيمة من القدرة على التعبير عن وحي السماء ،

"وإنَّه لتنزيلُ ربِّ العالمين . نَزَلَ به الروحُ الأمينُ . على قلبِك لتكونَ من المنذِرِين . بلسانٍ عربيّ مُبين ".

وكان لكتاب الله العزيز أثر في نموها ، إذ جاء بمعـانٍ سـامية ، ودلالات ناطقة ، وآيات باهرة ، وظلت تنمو بفضل مابذل العرب والمسلمون من جهود في إرساء أصولها والحفاظ عليها من التحريف والتصحيف ، ولولا ما أصاب الـوطن العربي والعالم الاسلامي من محن ونكبات لوصلت إلى مالم تصل إليه لغـة فـي العالم قبل القرن العشرين الذي وجد فيه العرب انطلاقة كبرى نحو التقدم ، فبـدأ الحريصون على العربية يبحثون في أُصولها حتى تيسر لهم الشيء الكثيـر ممـا أغنى العربية وأثراها.

وتعد حركة التجديد اللغوي ظاهرة حديثـة ، لأن القـدماء مـن العـرب والمسلمين لم يروا ما يجددها وهم يجدونها تنمو وتزدهر ، ولم تكن الظروف التي مروا بها في العهود المتأخرة تبعث على التجديد ، فضلا عن أنها كانت معبرة عن حياتهم حين أتى عليهم حينٌ من الدهر لم يكونوا فيه أحرارا فباتوا في سبات عميق.

إن إنطلاقة التجديد اللغوي ــ بمعناه الدقيق ــ بدأت قبل القرن العـشرين ، ولكنها بدأت تعطي ثمارها فيه ، وقد اتخذت مسارين :

الأول : دعوة المستشرقين ومن والاهم ، وهي دعوة تتمثل فـي اسـتعمال اللهجات المحلية ، وكان المستشرق الألماني (ولهلم سبيتا) من أوائل الداعين إلـى

(اللغة العامية) ، وكان قد عاش في مصر واختلط بأهلها ، وألف كتاب (قواعد اللغة العامية في مصر) اتهم فيه لغة القرآن الكريم بالصعوبة والتعقيد ، ورأى أن الالتزام بها يعوق التقدم ، ويشل العقل ، ويوقف الابداع .

وقام (كارلو لندبرج ــ عمر السويدي) يدعو إلى العامية ، وحمل هذه الدعوة (كارل فولرس) وأصدر كتاب (اللهجة العامية الحديثة في مصر).

وكان (ولكوكس) من اشدهم حقدا على العربية وأعظمهم حماسة للقضاء عليها واتخاذ العامية لغة التعامل والبحث والتأليف والتدريس ، وانضم اليهم (سلدن ولمور) وألف كتاب (العربية المحلية في مصر).

ورافقت هذه الحملة الضالة الدعوة إلى الأخذ بالحرف اللاتيني ، وتبناها المتأثرون بالسياسة الأجنبية والفكر الأوربي ، لأن الحروف اللاتينية ــ كما يزعم بعضهم ــ وسيلة العلم ولا وسيلة غيرها، وأن الأخذ بها ، فيه معنى إنساني سامٍ ، وهو الانضمام إلى الثقافة والحضارة الاوربية. واتبع هذا دعوته إلى الانصراف عن بلاغة العرب لأنها لاتمثل العصر ، ودعا إلى الأخذ باللهجات المحكية ، واستعمالها في الكتابة والنظم ، لأنها أكثر قدرة من العربية الفصيحة على جلاء الفكر، ووضوح البيان .

وهذه الدعوات ليست تجديدا ، وإنما هي هدم للعربية ، وقضاء على أهم مقومات وحدة الأمة العربية ، وهجر لكتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين .

الثاني : دعوة المخلصين من أبناء الأمة الغيارى على عروبتهم ولغتهم ، وهي دعوة تنطلق في تجديدها من أصول اللغة العربية وخصائصها التي تتميز بها، والتجديد عندهم ليس الهدم الذي دعا إليه المستشرقون ومن والاهم ، وإنما هو التيسير الذي يجعل اللغة على كل لسان .

لقد شمل التجديد علوم اللغة ، ففي البلاغة كان لأمين الخولي وعبد الله العلايلي وأحمد الشايب وأحمد مطلوب ومحمد عبد المطلب وغيرهم دور في رسم منهجها وتيسير مباحثها ، وكان تجديدهم ينبع من التراث ، ومما استجد في العصر الحديث من دراسات تتصل بالبنيوية والاسلوبية والشعرية ، وما بينها وبين الدرس البلاغي من صلات .

ولم تكن في القديم دعوة إلى تجديد النحو بمعنى التغيير، وإنما كانت دعوة إلى تيسيره للمبتدئين، إذ قال الجاحظ : "وأما النحو فلا تشغل قلبه ــ أي الصبي ــ منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إنْ كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشيء إن وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردّ عليه من رواية المثل ، والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع ". وظهرت الدعوة الأولى إلى تيسيره في الأندلس إذ دعا ابن مضاء القرطبي في كتابه (الرد على النحاة) إلى حذف ما يستغني

عنه الدارس والاكتفاء بما ييسر النحو ، وسار على خطاه ابراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو).

ولم يقتصر تيسير النحو على الأفراد وانما عُنيت به بعض الحكومات العرّبية والمجامع ، وعقدت له ندوات ومؤتمرات ، وقدمت محاضرات ومن آخر مايتصل بالتيسير (ندوة تيسير النحو) التي عقدها (المجلس الأعلى للغة العربية) بالجزائر في نيسان سنة ٢٠٠١ للميلاد ، و (ندوة تدريس اللغة العربية) التي عقدها المجمع العلمي ببغداد في تشرين الأول سنة ٢٠٠٠ للميلاد ، ومؤتمر (تيسير تعليم العربية) الذي عقده مجمع اللغة العربية بدمشق في تشرين الأول سنة ٢٠٠٢ للميلاد.

وأصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قرارات لتيسير الكتابة العربية ، وهي قرارات لاتغير أُسس الإملاء العربي ، وإنما تقربه إلى المتعلمين والمنشئين والكتاب .

وكانت المعاجم اللغوية مما عُني به المعاصرون ، وكان لبطرس البستاني وسعيد الخوري الشرتوني ولويس المعلوف وعبد الله البستاني وعبد الله العلايلي وأحمد رضا وغيرهم فضل كبير في العناية بالمعجم ورفد القديم بما استجد ، وكان (المعجم الوسيط) الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة من أيسر المعاجم

استعمالا ، وأكثرها فائدة لما فيه من دقة التعريف ، والدلالات الجديدة التي طرأت على الألفاظ في العصر الحديث .

وينهض اليوم اتحاد المجامع العربية بوضع المعجم التأريخي ، وإنه لأمل عظيم يراود العرب سنوات طوالا ، ولعل هذا الصرح اللغوي ينجز ليكون خير هدية للأجيال القادمة .

ويقف التربويون إلى جانب اللغويين ليقدموا طرائق جديدة لتدريس اللغة العربية ، وبناء المناهج اللغوية الحديثة ، مستمدين من التراث العربي ما فيه النفع، ومن الاتجاهات التربوية الحديثة ما فيه إنارة السبيل.

ومما ييسر اللغة العربية واكتشاف كنوزها التقانة الحديثة ، إذ نشط كثير من الباحثين في توظيفها والانتفاع بها ، وقد أظهرت نتائج باهرة الحواسيب التي أصبحت عدة الباحثين ومن لوازم ما يقومون به من أعمال علمية ، ولكن ــ على الرغم من هذا التقدم الكبير في التقانة ــ يبقى الانسان صاحب الموقف في الدراسات اللغوية ، لأن اللغة ليست علما فحسب ، وإنما هي فن وإبداع وتذوق رفيع .

هذا ما كان من أمر حركة التجديد اللغوي في القرن العشرين ، وسيبحث مجمع اللغة العربية في مؤتمره السابع هذا : أسس التجديد اللغوي ، وميادين التجديد اللغوي ، والتجديد اللغوي في ميدان تعليم اللغة وتعلمها ، والتجديد اللغوي

والترجمة ، وهذه قضايا لابدَّ من الوقوف عندها والبحث فيها لأنها تمثل ما يسعى إليه الباحثون من تجديد علوم اللغة العربية وتيسيرها ، ورفدها بكل جديد لايهدم أُصولها ويمحق كيانها . ولكن الاكتفاء بالمؤتمرات وتقديم البحوث لن يجدي نفعا كبيرا مالم يتم (التعريب) في الوطن العربي كله ، ويكون البحث والتأليف والتدريس باللغة العربية كما هو الآن في الجمهورية العربية السورية التي صمدت أمام التحديات قرنا كاملا ، وستصمد إلى ما شاء الله ، لأن هذا قدرها وقدر كل مخلص من العرب . ويتبع ذلك إصدار قوانين تلزم المؤسسات الرسمية والأهلية باستعمال اللغة العربية في جميع الشؤون ، وأن يكون للمجامع سلطة تنفيذية تراقب وتحاسب وتتخذ الإجراءات ، ولا عبرة بما يقال : إن اللغة تأخذ مجراها ولا سلطة عليها إلا قوانينها ، وفي هذا خطر كبير ؛ لأنه يُفضي إلى مسارات ضالة تفقد فيه اللغة خصائصها وكيانها ، ويقع الناطقون بها في بلبال .

واليوم يشهد مجمع دمشق كوكبة من الأساتذة العلماء الباحثين ، وقد جاءوا ليحيوا هذا البلد الأمين ، ويقدموا خبراتهم في (التجديد اللغوي) الذي يسعى إليه كل مخلص لأمته ، وللغة القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين .

وبرفعة لغة الضاد وباسمهم أقدم للمجمع العتيد آيات الشكر والتقدير ، إذ أولاهم ثقته الغالية فجاءوا من كل أرض عربية يحملون الأمل المنشود في رفعة الأمة العربية ولغتها التي وجب الحفاظ عليها من كيد الحاقدين الذين يريدون بها

سوءً ، وقد خسئوا فهم " يُريدونَ أَنْ يُطْفِئوا نُورَ اللهِ بأفواهِهم ، ويـــأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتمَّ نورَه ، ولو كَرِهَ الكافرونَ ".

أقول هذا وأنا أذكر هنا المرحوم الزميل الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع ، وما قدم للمجمع والعربية من خدمات ، فعلى روحه الطاهرة ألف ســـلام ممن عرفوا فضله وممن جاءوا اليوم ليقولوا : إنا على العهد باقون ، وإن العربية ــ إن شاء الله ــ ستبقى راياتها ترفرف إلى يوم الدين .